فتح الأندلس

أحوال الأندلس قبل الفتح

١- الحالة السياسية

كان فتح إسبانيا (2) متصلاً في كثير من جوانبه بسياسة الفتوحات في المغرب، وأن الاسباب التي دفعت المسلمين إلى عبور المضيق تتصل مباشرة بالظروف السياسية والاجتماعية والدينية التي عاشتها إسبانيا قبل الفتح.

ظلت إسبانيا تحت حكم الرومان مدة سبعة قرون ، وهي تؤلف جزءاً من الممتلكات الرومانية، إلى ان أغارت عليها قبائل الوندال الجرمانية في القرن الخامس الميلادي، واستقرت في السهل الجنوبي، وأعطت المنطقة اسمها ڤاندلوسيا(3).

ثم حدث أن أغارت قبائل القوط الغربيين على إسبانيا، في القرن السادس الميلادي، وطردواالوندال إلى أفريقيا، وأنشاوا لهم دولة عاصمتها طليطلة. ووضعوا لدولتهم الجديدة هذه نظماً وقوانين خاصة بهم كانت متأثرة بروح النظم والحضارة الرومانية ، كما اعتنقوا المسيحية، واستمر حكمهم للأندلس حتى الفتح الإسلامي(1).

كانت الاوضاع السياسية الداخلية، قبيل دخول المسلمين ، متدهورة ، سادها الاضطراب بفعل الصراع على العرش ، بعد وفاة الملك غيطشة في عام (٨٩هـ/ ٧٠٨) بين ابنه أخيلا وبين لذريق ، احد قادة الجيش ، الذي تمكن من إعتلاء العرش بمساعدة النبلاء ورجال الدين (٢)، الامر الذي أدى الى انقسام حاد في البلاد بين مؤيد للملك الجديد ومعارض له، وبالتالي فقدان الوحدة السياسية والنظام ،

مما جعل البلاد أرضاً سهلة الفتح أمام المسلمين وحملتهم على التفكير بالعبور الى إسبانيا.

يضاف إلى هذا العامل السياسي عامل جغرافي الذي جمع بين شاطئ المضيق من حيث البيئة، بفعل أن إسبانيا أكثر انفتاحاً على المغرب مع وجود حاجز جبال البيرينييه، فضلاً عن العامل التاريخي، الذي وحّد هذين الإقليمين لعدة قرون خلت.

2- الحالة الاجتماعية

كانت الحالة الاجتماعية في إسبانيا، عندما فتحها القوط ، في غاية السوء. فقد وُجدت في المجتمع الاسباني، آنذاك، مجموعة صغيرة من الأسر النبيلة تملك الإقطاعات الكبيرة التي يعمل في فلاحتها

آلاف المزارعين من الأرقاء والعبيد الذين ألفوا طبقة الدنيا ، ذات جذور اللاتينية. كما انتشرت في البلاد أعمال السلب والنهب من قبل جماعات خارجة على القانون تجوب أنحاء القرى .

وازداد الوضع الاجتماعي سوءاً تحت الحكم القوط بفعل استمرار حالة الانقسام في المجتمع الإسباني، وسيطرة طبقات المجتمع بعضها على بعض سيطرة تامة. ووجدت في المجتمع الإسباني آنذاك عدة طبقات اجتماعية كان أهمها :

طبقة النبلاء : إنهم الأمراء القوط وعلى رأسهم الملك الذي مثّل رأس النظام القوطي . كان أفراد هذه الطبقة قليلي العدد وشكلوا طبقة أرستقراطية حاكمة ، فنعموا بأمتلاك الإقطاعات والضياع الواسعة وفقدان الانسجام الحضاري بينهم وبين السكان الأصليين. ومن الواضح أن هذا الاختلال قد أوجد نوعاً من التنافر بين الطرفين. وفشلت هذه الطبقة الحاكمة في خلق مجتمع متجانس وطني الأنتماء.

طبقة رجال الدين : استغل رجال الدين مركزهم الديني المتميز فاستمتعوا بأكبر قسط من النفوذ والسلطان، فامتلكوا الأراضي الواسعة والقصور الرائعة الحافلة بالعبيد، وأضحوا على درجة عالية من الثراء وتناسوا المثل العليا التي نادوا بها حين كانو فقراء(1) وقد ساعدهم على بلوغها تديُن القوط وسيطرة الدين في العصور الوسطى، على كل شي .

تمتّع الرهبان بمركز مرموق لدى الحكام، مما جعل لهم تأثيراً مكنهم من توجيه القوانين والنظم، وصياغة الحياة العقلية والاجتماعية وفقاً لاتجاه الكنيسة وغاياتها

- طبقة الوسطى : وتتألف من صغار الملاك، كانت قليلة العدد، مثقلة بالضرائب، يقع عليها عبء الإنفاق على الدولة، مما ادّى إلى ضعفها وإفلاسها ، وأصيبت بالبؤس والشقاء (2) .

- طبقة الشعب الدنيا : تكونت هذه الطبقة من المزارعين والعبيد الذين كانو شبه ارقاء، مرتبطون بالأرض وألحقوا بالضياع ، وللسيد عليهم حق الحياة أو الموت . وقد رزحت هذه الطبقة تحت شقاء الحياة وبؤسها وسلبت كل الحقوق المدنية. وتعتبرها هذه أكثر عدداً من الطبقات الأخرى وأقل حقوقاً(3).

اليهود : ووجدت في المجتمع الإسباني طائفة كثيرة العدد من اليهود عمل أفرادها في الصيرفة والأمور المالية، والجباية في دوائر الحكومة ، الا أنهم كانو مكروهين بسبب اختلاف عقيدتهم وتعاطيهم الربا ، وأرهقوا بالضرائب، فلم ينعموا بالحياة الهادئة، وعانوا أبشع ألوان الجور والاضطهاد من الدولة والكنيسة معاً. نتيجه لهذا الضغط قام اليهود بعدة محاولات فاشلة لقلب نظام

الحكم عن طريق الثورة حيناً، وعن طريق المؤامرات أحياناً إلى أن قرورا أخيراً الاستعانه بالمسلمين

الحالة الدينية

كان الشعب الإسباني، بأستثناء اليهود يدين بالمسيحية على المذهب الكاثوليكي، الذي فرضه رجال الدين ، وحرموا انتشا أي مذهب آخر. فسيطروا بنفوذهم الروحي على الشعب ، الذي حرم عليه أن يتطرق إلى ذهنه أي شك في الكنيسة الكاثوليكية ،والنظم الانجيلية ، والتفاسير والآبا الروحيين والمراسم الكنيسة والقرابين وغيرها من الطقوس المسيحية ذات المذهب الكاثوليكي، وقد كسب رجال الدين عطفاً متزايداً سمح لهم بالتدخل في شؤون الدولة، فكان الأساقفة وكبار رجال الدين يحظرون المجالس الوطنية التي كانت تنظر في الشؤون العامة للدولة ، ويصادقون على انتخاب الملك، وادّعت هذه الفئة لنفسها الحق في عزلة إذا أبى الإذعان لقراراتها، وهكذا نرى مما تقدم أن اسبانيا فقدت وحدتها السياسية وفسدت حياتها الاجتماعية وانطوت في عزلة دينية متزمتة في الوقت الذي ظهرت فيه على الجانب الآخر من المضيق قوة إسلامية متماسكة ومندفعة تترقب سنوح الفرص للتدخل.

عمليات الفتح

كانت مدينة سبتة تابعة ، من الناحية النظرية، والبيزنطية، الا أن هذه الأخيرة فقدت تأثيرها الفعلي على هذا الجزء من الشمال الإفريقي، بفعل بُعده عن مركز العاصمة، الامر الذي جعل حاكمها يوليان مستقلاً على الشريط الساحلي الممتد بين طنجة وسبتة، ويتوجه في وقت الشدة إلى مملكة إسبانيا لحمايتة (2)، ويبدوا أن يوليان هذا، كان يملك بعض الإقطاعات في جنوبي إسبانيا، وهو على صلات حسنة مع حكام البلاد السابقين آل غيطشة، وتحالف مع أخيلا ، المطالب بالعرش الإسباني، للتخلص من حكم لذريق، كما كان رسول آل غيطشة إلى المسلمين(3).

ولما تاخم المسلمون حدود بلاده وجد في قوتهم خير من يساعده في تحقيق هدفه، كما أراد أن يقدم خدمة جليلة لهم بعد أن أضحوا أسياد المنطقة. فقرر أن يؤدي دور الوسيط في تشجيعهم على العبور إلى إسبانيا ، وظهر كحلقة اتصال بينهم وبين التيار المناوئ الملك لذريق . فأتصل من أجل ذلك بطارق بن زياد في طنجة وكلمه في غزو إسبانيا مقترحاً عليه العبور إليها، وبين له حسنها وفضلها وما تحويه من الخيرات وهوّن عليه حال رجلها ووصفهم بالضعف. وبادر طارق بالاتصال بموسى بن نصير وكان مقيماً بالقيروان، وأبلغه بما عرضه عليه يوليان لأتخاذ القرار بهذا الشأن. والواقع أنه لم يكن لدى موسى بن نصير ما يدعوه إلى رفض هذه الفكرة، ذلك أن الامر قد يتطور إلى

صورة فتح الإسلامي شامل لهذا البلد يدخله في دائرة الدولة العربية الإسلامية(2). الا أن عملاً ضخماً من هذا النوع، لا بد وأن ينال موافقة الخلافة في دمشق، لذلك كتب موسى إلى الخليفة الوليد يبلغه بما عرضه يوليان ويستأذنه في العبور. تردد الوليد في بادئ الأمر خشية على المسلمين من أن يُغرّر بهم، وأمر موسى بأن يتروى في الأمر ، وأن يختبر البلاد بالسرايا(3)، والحقيقة أن فتح المسلمين لإسبانيا كان نتيجة خطة موضوعة نوقشت بين الخليفة وقائده، وأقرها الأول، ويبدو أنه كان لسياسة الدولة الإسلامية العامة وعلاقتها بالبيزنطيين وتأثير الحملة على هذه العلاقات خاصة في مجال البحري، والسيطرة على الجزر في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، تأثير على قرار الخليفة(4). وبعد نضوج الظروف التي هيأت للمسلمين انتصاراً آخر، وتنفيذاً لأوامر الخليفة، أرسل موسى أحد ضباطه ويدعى طريف بن مالك المعافري، وهو من البربر، على رأس قوة عسكرية تقدر بأربعمائة راجل ومائة فارس، في مهمة استطلاعية، وأمره بالقيام بالغارة على ساحل اسبانيا الجنوبي وكان ذلك في عام (٩١هـ/ ٧١٠ م) (5) .

نزل طريف وجنوده في جزيرة بالوماس، وأغار على المناطق التي تليها إلى جهة الجزيرة الخضراء وأصاب سبياً كثيراً وعاد محملاً بالغنائم ، واقنعته هذه الحملة بضعف وسائل الدفاع الإسباني، شجع نجاح طريف موسى بن نصير، فأرسل ، في شهر رمضان عام (٩٢هـ/ شهر حزيران عام ٧١١م) قوة عسكرية قوامها سبعة آلاف مقاتل تألفت غالبيتها من البربر، بقيادة طارق بن زياد نائبه على طنجة(3). عبر طارق المضيق، ونزل تجاه الجزيرة الخضراء عند صخرة الأسد، وسيطر على جبل بعد أن اصطدم بالحامية القوطية، وقد حمل الجبل منذ ذلك الوقت اسمه، فدعي بـ((مضيق جبل طارق))(4). أقام القائد المسلم عدة أيام في قاعدة الجبل ، نظّم خلالها جيشه، وأعد خطة لفتح القلاع القريبة، والتوغل في عمق إسبانيا، ونجح في فتح بعض القلاع والمدن منها قرطاجة والجزيرة الخضراء (5)، ثم تقدم باتجاه الغرب حتى يبلغ بحيرة خندة جنوبي غربي إسبانيا التي يقطعها نهر برباط عبر وادي لكة الشهير، وعسكر هناك. وعلم بواسطة جواسيسه بأنباء حشود الضخمة التي حشدها لذريق (6) الذي تقدم باتجاه القوات الإسلامية، وعسكر على الضفة المقابلة للنهر. وبدا الفرق بين القوتين كبيراً مما دفع طارق إلى طلب النجدة من موسى بن نصير ، الذي كان يراقب باهتمام أخبار الحملة من الساحل الإفريقي . فأمده بخمسة آلاف مقاتل، والتقى الجيشان الإسلامي والقوطي عند وادي لكة من كورة شذونة، على بُعد أميال إلى الشرق من قادش، وجرت بينهما معركة طاحنة انتهت بانتصار المسلمين، وتم القضاء على الجيش القوطي ومعه الملك، وفتح هذا الانتصار أمام المسلمين باباً واسعاً للولوج منه إلى عمق إسبانيا. وباستثناء معركة إستجة ، التي خاضتها فلول الجيش القوطي، فإن المسلمين لم يصطدموا بأية مقاومة جدّية، وهكذا سقطت

قرطبة، الواقعة على نهر الوادي الكبير، ومالقة والبيرة واريولةوطليطلة، العاصمة القوطية الشهيرة. وطارد المسلمون فلول الهاربين باتجاه الشمال الغربي قبل أن يعودوا إلى طليطلة في خريف عام (٩٣هـ/٧١٢م) .

وبذلك انتهت هذه المرحلة من عملية فتح إسبانيا بنجاح كبير. كتب طارق إلى موسى يخبره بما أصاب من انتصارات وما فتحه من مدن، فرد عليه يأمره بألا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، ويبدو أنه أدرك خطر الانتشار الواسع للمسلمين في بلاد جبلية وعرة لا يزال معظمها مجهولاً لديهم، فأراد أن يعزز بوجوده الموقع العسكري للمسلمين، أو ربما شجعته الانتصارات على الانتقال إلى تلك البلاد للوقوف شخصياً على أوضاعها ومراقبة سير العمليات العسكرية عن كثب، خاصة بعد الانتشار العسكري، الذي امتد إلى مختلف الجهات، وتدفق القوات الإسلامية الإضافية على إسبانيا بعد سقوط طليطلة، الأمر الذي دفعه لأن يكون على أرض المعركة، ويتخذ قراراته الحاسمة في الوقت الملائم. لكن الراجح، أن موسى إنما أراد أن يطبق على البلاد منفذا بذلك خطة استراتيجية محكمة، وموضوعة مسبقاً، تشبه حركة الكماشة في المصطلح الحربي الحديث، بدليل أنه سلك، أثناء توغله في إسبانيا، طريقاً أخرى مقابلة للطريق التي سلكها طارق كما سنرى. ومهما يكن من أمر، فقد أقلع موسى بن نصير في شهر رمضان عام(٩٣هـ/٧١٢م) إلى الجزيرة الخضراء على رأس قوة عسكرية تقدر بثمانية عشر ألف مقاتل، واستخلف ابنه عبدالله على القيروان(3). ولما دخل إسبانيا سار في طريق غربي الطريق التي سلكها طارق، وفتح مدناً أخرى مثل قرمونة ثم مضى إلى اشبيلية في الشمال الغربي، وكانت الهدف الرئيسي في حملته ففتحها في عام(٩٤هـ/٧١٣م) بعد الحصار، وصالحته مدينة ماردة(1)، وامتدت فتوحاته إلى برشلونة شرقا و اربونا في الجوف وقادش في الجنوب و جيليقية في الشمال الغربي .ولما اقترب من طليطلة خرج طارق بن زياد لاستقباله في طلبيرة التي شهدت مجلساً عسكرياً لتقييم ما تم إنجازه من خطة الفتح وما سيتم فتحه في المستقبل .

وتذكر الروايات التاريخية أنه حصل خلاف بين الرجلين ، وتبالغ المصادر فترجع أمر الخلاف إلى حسد دبّ في نفس موسى على مولاه طارق بفعل ماحققه من نجاح. وتنسب هذه الروايات إلى موسى أنه أهان طارق وضربه بالسوط، و وبخه على استبداده برأية، وطالبه بالأموال والنفائس التي استولى عليها، والراجح أن هذه الروايات مبالغ فيها، وتنظر إلى هذا المشروع الضخم من زاوية شخصية ضيقة. ومما لا شك فيه أن كلاً من القائدين قد اهتم بمصلحة المسلمين العليا، وسلامة أرواحهم قبل أي شيء آخر. وواضح من الخطة الموضوعة للفتح والتي نفذت على الأرض، أن الرجلين كانا متفقين على الالتقاء في العاصمة القوطية(4). ومهما يكن من أمر ذلك، فنحن لا نستبعد

إمكانية حصول تباين في وجهات النظر بين الرجلين على بعض الأمور، والخطط، مثل اندفاع طارق وسط إسبانيا دون تأمين ظهره، إلا انهما كانا متفقين على خطة إتمام الفتح ، بدليل تجديد موسى لطارق إمرة الجيش واشتراكهما معاً في حملة عسكرية استهدفت مدينة سرقسطة في إقليم أراغون ففتحاها ، كما فتحا برشلونة، ثم افترقا فسار موسى نحو الشمال مخترقاً جبال البرينييه، فغزا ولاية سبتمانيا، وفتح قرقشونةونماربون، وغزا وادي الرون في بلاد الفرنجة ووصل إلى مدينة ليون، في حين اجتاز طارق وادي الأبرو، وغزا جيليقية(5). في هذه الاثناء تلقى كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد أمرا من الخليفة بوقف العمليات العسكرية والعودة فوراً الى دمشق، وعين الأول، قبل مغادرتة، ابنه عبد العزيز حاكماً على الاندلس نيابة عنه .

أثر فتح الأندلس

مما لا شك فيه أن الفتح الإسلامي للأندلس كانت له نتائج بالغة الاهمية لعل أهمها :

لقد غيّر هذا الفتح أوضاع السكان بشكل عام. إذ بعد زوال الحكم القوطي، تجمع زعماء القوط في منطقة جيليقية في الشمال الغربي، وقد آلت ممتلكاتهم وأموالهم إلى المسلمين، وابقى المسلمون على الذين ساعدوهم، فأُعيدو بوليان إلى حكم سبتة، ورُدت إلى أولاد أخيلا أموالهم وممتلكاتهم وضياعهم، كما سمح لبعض النبلاء والإقطاعيين، في بعض المناطق بالاحتفاظ بأراضيهم، اما الأراضي التي تركها اصحابها بفعل الفرار أو القتل في المعارك، فقد صاردها المسلمون، وجرى توزيعها عليهم. أحسن المسلمون معاملة أهل البلاد الذين تعرضوا للاضطهاد في العهد القوطي، فسمح للمزارعين أن يمارسوا حياتهم الزراعية على حسابهم، على أن يودوا الخراج(3). وسارع الكثير من رقيق الأرض والعبيد إلى اعتناق الإسلام عندما وجدوا فيه التسامح الذي كانوا ينشدونه، و دان بالإسلام عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا عن إيمان ثابتسمح المسلمون لليهود، الذين أعانوهم في عملية الفتح، بمزاولة التجارة وأمنّوهم على انفسهم وأموالهم وأولادهم، ومنحوهم حرية التملك، وعمل الكثير منهم في العلوم والآداب والطب والفلسفة، فكانوا أكثر الطوائف استفادة من الفتح ترك الفتح الإسلامي للأندلس بعض النتائج الكبيرة من ناحية الاجتماعية، حيث أدت مصادرة ممتلكات كثير من النبلاء، بالإضافة إلى ممتلكات الكنيسة، إلى زيادة عدد صغار المزارعين ملحوظة.

كان الفتح الإسلامي خيراً على إسبانيا، فقد أحدث ثورة اجتماعية، وقضى على مساوئ العهد القوطي التي كانت البلاد ترزح تحتها منذ عدة قرون

ولاية العهد ـ وفاة الوليد

أراد الوليد أن يؤدي الدور نفسه الذي اداه والده عبد الملك من قبل، وذلك بعزل أخيه سليمان، وتولية ابنه عبدالعزيز العهد، فدعا الناس الى ذلك فلم يجبه أحد إلا الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وبعض خواصه، وأشار عليه أعوانه بأن يستدعي سليمان ويجبره على خلع نفسه وبيعة عبد العزيز، وفعلا عزم الوليد على تنفيذ ذلك لكن المنية وافته فتوقف المشروع، توفي الوليد بن عبدالملك في (شهر جمادى الآخرة عام (٩٦هـ/ شهر شباط عام٧١٥) بدير مروان بعد أن مكث في الحكم تسع سنين وثمانية أشهر، وكانت سنة عند وفاته ستاً وأربعين سنة وكان له من الاولاد تسعة عشر.